جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم التاريخ
مقياس تاريخ المشرق الإسلامي ق2-8هـ/8-14م
د. بلال ساحلي
البريد الالكتروني: b.sahli@univ-dbkm.dz

**المحاضرة السادسة:**

## 5- العصر العباسي الرابع: الأتراك السلاجقة وسقوط الدولة العباسية 447هـ-656هـ/1056-1259م:

**خلفاء العصر العباسي الرابع: ( 447-656هـ/1056-1259م):**

22- المقتدي بأمر الله عبد الله ابن محمد ابن القائم (467-487هـ/1075-1095م)
23- المستظهر بالله أحمد بن المقتدي(487-512هـ/1095-1119م)
24- المسترشد بالله الفضل بن المستظهر(512-529هـ/1119-1135م)
25- الراشد بالله منصور بن المسترشد(529-530هـ/1135-1136م)
26- المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر(530-555هـ/1136-1161م)
27- المستنجد بالله يوسف بن المقتفي(555-556هـ/1161-1162م)
28- المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد (566-575هـ/1162-1180م)
29- الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء (575-622هـ/1180-1226م)
30- الظاهر بامر الله محمد بن الناصر (622-623هـ/1226-1227م)
31- المستنصر بالله منصور بن الظاهر(623-640هـ/1227-1243م)
32- المستعصم بالله عبد الله بن المستنصر640-656هـ/1243-1259م).

### 5-1 الخلافة العباسية في عهد السلاطين السلاجقة:

كنا قد ذكرنا سابقاً الطريقة التي جاء بها طغرل بك السلجوقي إلى بغداد وكيف أنه ساهم في منح نفس جديد للخلافة العباسية من خلال تصديه لمشروع البساسيري، إلا أنه أرغم الخليفة على تزويجه ابنته سنة454هـ/1062م، وهو سلوك مستهجن لم يفعله حتى ملوك بني بويه مع قهرهم للخلفاء وتحكمهم فيهم، ولعل طغرل بك كان يريد من هذا الفعل جعل الخلافة في ذريته.

ولم يمكث طغرل بك ببغداد وإنما رجع إلى بلاد الري ثم توفي سنة 455هـ/1063م، فخلفه في السلطنة ابن أخيه ألب أرسلان، وهو من كبار السلاطين افتتح بلادًا كثيرة من بلاد النصارى، وبنى النظامية، وهي أول مدرسة بنيت للفقهاء، كما كان له دور في إقامة الخطبة للعباسيين في الحرمين وحلب بعد أن كانت للعبيديين .

بعد وفاة القائم الذي حكم 45 سنة استخلف حفيده **المقتدي بأمر الله (467-487هـ/1075-1095م)** الخليفة السابع والعشرين، ازدهرت الخلافة وتوطدت أركانها في عصره، فكانت أيامه خيراً على الناس، لأنه استفاد من الاستقرار الذي كان في خلافة جده، كما أنه اتخذ الكثير من القرارات الحسنة مثل نفي المغنيات، وتخريب أبراج الحمام صيانة لحرمة الناس، إلا أنه في أول سنة من خلافته فقد الخطبة في الحرمين لصالح العبيديين إذ أن الخطبة في الحرمين خلال تلك الفترة لم تستقر، في المقابل استعاد منهم الخطبة في مساجد دمشق.

ومن الأشياء التي ميزت عصره أن يوسف بن تاشفين أمير المرابطين أرسل إليه يطلب منه أن يسلطنه على البلاد التي بيده، فوافق الخليفة ولقبه: "أمير المسلمين"، ففرح أهل المغرب وفقهاؤه بذلك، وهذا من عز المسلمين في ذلك الوقت حيث كان السلاجقة في يجاهدون الروم في الشرق والمرابطين في الغرب .

إلا أن السلاجقة لم يبدوا أحيانا كثيرة احتراما للخليفة العباسي ففي عهد المقتدي 485هـ/1092م حاول السلطان السلجوقي ملكشاه أخذ بغداد غصباً وإخراج الخليفة منها، ورغم مساعي هذا الاخير في منحه ولو مهلة للخروج إلاَّ أن ملكشاه أصرَّ عليه بالخروج في أسرع وقت، إلاَّ أنه توفي قبل قدومه وهو ما اعتبر كرامة لهذا الخليفة.

ولكنه توفي بعد ذلك بزمن يسير وقيل أنه مات مسموماً، فاستخلفه ابنه الخليفة الثامن والعشرين **المستظهر بالله أحمد بن المقتدي**(487-512هـ/1095-1119م)، الذي كان كريم الاخلاق يسارع في اعمال الخير، محباً للعلماء والصلحاء، ولكن لم تَصْفُ له الخلافة بل كانت أيامه مضطربة كثيرة الحروب، وهذا راجع إلى اقتتال أبناء ملكشاه على السلطنة بعد وفاته، وكذلك تسلط الفرنج على بلاد الشام بما في ذلك القدس .

ثم استُخلف من بعده ابنه الخليفة التاسع والعشرين **المسترشد بالله الفضل بن المستظهر**(512-529هـ/1119-1135م)، وكان خليفة قوياً، فقيهاً شافعياً، أحيا رسم الخلافة وضبط أمورها، وباشر الحروب بنفسه وهو أمر غاب على الكثير من الخلفاء لدرجة أنه وقع في الأسر ثم قتل على يد مسعود بن محمد بن ملكشاه التركي، فتمت البيعة لابنه الخليفة الثلاثين **الراشد بالله منصور بن المسترشد**(529-530هـ/1135-1136م)، لكنه سرعان ما تمت تنحيته بعد أن شهد عليه جماعة من القضاة والفقهاء والأعيان بالفسق وأنه لا تجوز خلافته، وأجازوا للسلطان خلعه، وعلى هذا الاساس بايعوا عمه الخليفة الواحد والثلاثين **المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر**(530-555هـ/1136-1161م)، الذي تقلد الخلافة في زمن تسلط فيه السلطان التركي مسعود بن محمد بن ملكشاه(ت547هـ/1153م) الذي تسلط على ثلاث خلفاء هم: المسترشد والراشد والمقتفي -في بداية خلافته-، وصادر جميع ممتلكات الخليفة، لدرجة أن الأخير قال له: ( لم يبقى إلا الدار نسلمها لك )

، ثم منذ سنة 533هـ/1139م تضعضع أمر السلاطين ثم وافق ذلك وفاة مسعود بن محمد بن ملكشاه، في المقابل انتعش مركز الخليفة وكان ذلك مبدأ صلاح الدولة العباسية.

وكان مما ميز خلافته نشاط حركة الجهاد التي قادها السلطان نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب، وأخوه غازي صاحب الموصل، وقد استغل الخليفة موت الظافر بالله العبيدي صاحب مصر فكتب عهداً لنور الدين يوليه مصر ويأمره بالمسير إليها، فكان آل زنكي سبباً مباشراً في قوة الخليفة المقتفي وعودة هيبة الدولة العباسية، وفي هذا الشأن يقول ابن الجوزي: ( **من أيام المقتفي عادت بغداد والعراق إلى يد الخلفاء، ولم يبق لها منازع، وقبل ذلك من دولة المقتدر (295-320هـ/908-932م).إلى وقته -المقتفي- كان الحكم للمتغلبين من الملوك، وليس للخليفة معهم إلا اسم الخلافة).**

بعد وفاة المقتفي تم استخلاف ابنه **المستنجد بالله يوسف بن المقتفي**(555-566هـ/1161-1162م) وهو الخليفة الثاني والثلاثون، اتفقت المصادر على حسن سيرته، وكان أهم ما ميز خلافته سنة562هـ/1167م تجهيز السلطان نور الدين صاحب دمشق جيشاً لمحاصرة مصر فاستنجد صاحبها العبيدي بالفرنج، لكنهم انهزموا، ثم عادوا بعد سنتين وحاصروا القاهرة طمعاً في حكمها، مما اضطر صاحبها إلى الاستنجاد بنور الدين فخضعت له مصر وأصبح سلطاناً عليها بعد أن ولاَّه العاضد العبيدي.

هذا التحول الطارئ على البلاد المصرية تعزز أكثر في فترة الخليفة الذي جاء من بعده وهو **المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد** (566-575هـ/1162-1180م)، الذي في خلافته انقضت دولة بني عبيد في مصر، بعد أن سعى نور الدين وصلاح الدين في إقامة الخطبة للعباسيين في مساجدها سنة567هـ/1163م، وضربت السكة باسمهم، واحتفى الناس بذلك، ووافق موت الخليفة العبيدي العاضد، فأصبحت مصر في الحوزة العباسية، وكان الإمام ابن الجوزي قد عاصر تلك الحادثة وألف كتاب: "**النصر على مصر**" وعرضه على الخليفة المستضيء.

ولقد استمر هذا الانتعاش على مستوى مؤسسة الخلافة بمجيء الخليفة الرابع والثلاثون **الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء** (575-622هـ/1180-1226م)، الذي لم يَلِ الخلافة العباسية أحد أطول مدة منه، فإنه أقام فيها سبعة وأربعون سنة قضاها في قمع أعدائه ومخالفيه والخارجين عليه، فدانت له البلاد وخُطِبَ له من بلاد الأندلس إلى بلاد الصين، وكان لا يخفى عليه شيء من أمر رعيته فقد كان له أصحاب أخبار يطالعونه بجزئيات الأمور، وتدور حول شخصيته الكثير من الحكايات الغامضة، لدرجة أنهم زعموا بأنه كان مخدوماً من الجن.

هذه السمعة جعلت للناصر هيبة وخيفة في قلوب الرعية، فكان يرهبه أهل الهند ومصر كما يرهبه أهل بغداد، فأحيا هيبة الخلافة التي ماتت منذ عهد المعتصم، حتى أن الملوك والأكابر في مصر والشام إذا ذكروه في خلواتهم خفضوا أصواتهم مخافة أن يبلغه حديثهم، حتى أنه عاتب السلطان صلاح الدين لأنه تلقب "بالناصر" مع علمه

أن الخليفة اختار هذا اللقب لنفسه، ومن القصص التي تروى حول مكره أنه لما قَلَّ بصره أخفى ذلك عن الجميع حتى خواصه، وكانت له جارية علمها الخط بنفسه، فكانت تكتب مثل خطه على التواقيع .

إلاَّ أنَّ هذا الخليفة كان سيء السيرة بسبب ميله إلى الظلم مع الرعية وإثقالهم بالضرائب، وتشيعه على مذهب الإمامية، بخلاف آبائه، حتى أن ابن الجوزي سُئِلَ بحضرته: من أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟، فقال: (أفضلهم بعده؛ من كانت ابنته تحته). وهو جواب محتمل لأنه لم يقدر على تفضيل ابي بكر.

ومن الأحداث البارزة في خلافته استرجاع صلاح الدين لكثير من البلاد الشامية بما فيها بيت المقدس من أيدي الفرنج سنة 583هـ/1188م، وفي سنة 590هـ/1195م طغرل شاه بن أرسلان بن أرطغل بن محمد بن ملكشاه وهو آخر ملوك السلاجقة، بعد أن دامت سلطنتهم 160 سنة.

بعد وفاة الناصر تمت البيعة لابنه **الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر** (622-623هـ/1226-1227م) الخليفة الخامس والثلاثون، لم تدم خلافته إلا تسعة أشهر، إلا أنها كانت مليئة بالعدل والإحسان إلى الرعية، وأصلح الشيء الكثير مما كان والده قد أفسده، حتى قيل: ما ولي الخلافة بعد عمر بن العزيز مثله.

ثم أعقبه ابنه الخليفة **المستنصر بالله منصور بن الظاهر**(623-640هـ/1227-1243م)، الذي سار على سيرة والده في إرساء العدل، وإقامة الدين، والإحسان إلى الرعية، كما أن شجاعته قادته إلى حفظ الثغور وفتح الكثير من الحصون، وساهمت جيوشه في التصدي للتتار لما حاولو الدخول في زمن خلافته، ومن محاسنه أنه بنى المدرسة المستنصرية، 625هـ/1229م وبها أربعة مدرسين على المذاهب الأربعة، مع وجود 248 فقيه، وعلماء في الحديث والنحو والطب تتكفل المدرسة بإطعامهم وإقامتهم.

ثم بعد المستنصر جاء ابنه الخليفة السابع والثلاثون والأخير **المستعصم بالله عبد الله بن المستنصر640-** 656هـ/1243-1259م)، الذي في عهده أسدل الستار على الدولة العباسية بعد الاجتياح المغولي .

### 2-5 الزحف المغولي على العراق وسقوط بغداد عاصمة الدولة العباسية:

جاء الخليفة المستعصم بالله عبد الله بن المستنصر(640-656هـ/1243-1259م) في ظرف تنامى فيه الخطر المغولي، وكان هذا الخليفة صالحاً متديناً مثل أبيه وجده ولكنه لم يكن مثلهما في التيقظ والحزم، رغم أن خطر التتار كانت بدايته منذ سنة 606هـ/1210م، فهو أمر ظاهر وليس بخفي خاصة على من تقلد أمور المسلمين .

إلاَّ أن بطانة هذا الخليفة كان لها دور كبير في الاجتياح المغولي لأنها قدمت مصالحها الضيقة على مصلحة الدولة ومصيرها، فهذه البطانة منذ اليوم الأول كان لها دور في توليته لا لشيء سوى للتحكم فيه، لأن والده

الخليفة المستنصر (640هـ/1243م) كان له أخ شجاع يقال له: "الخفاجي" كان يقول لئن وليت الخلافة لأعبرن بالعساكر نهر جيحون وآخذ البلاد من التتار وأستأصلهم، فلما مات المستنصر لم يرد الدويدار ولا الشرابي تقليد الخفاجي خوفاً منه، وفضلا مكانه إقامة ابن المستعصم عبد الله المستنصر حتى يتحكما فيه لضعف رأيه.

ثم زاد الطين بلة لما ركن المستعصم لوزيره الرافضي مؤيد الدين ابن العلقمي، الذي تلاعب بالخليفة كيف أراد، وكانت له مراسلات سرية مع التتار، يتآمر معهم لإدخالهم بغداد وإسقاط الدولة العباسية حتى يقيم خليفة من العلويين، لأنهم وعدوه بأن يجعلوه نائبهم غذا ساعدهم على دخول بغداد، فكان إذا جاءه خبر عن التتار يكتمه عن الخليفة في المقابل يطالع التتار باخبار الخليفة .

ومن دهاء هذا الوزير أنه أشار على الخليفة بأن لا يستكثر الجند ويكتفي بمهادنة التتار وأن ذلك كافي لاتقاء شرههم، عكس ما كان يقوم به والده المستنصر الذي احتاط من التتار فكان يستكثر من الجند .

ومن أخبار التتار أنهم تصل إليهم أخبار الأمم في المقابل لا تصل أخبارهم إلى الأمم، وقَلَّمَا يقدر جاسوس أن يخترقهم لأن الغريب لا يتشبه بهم، والغالب على خططهم العسكرية أنهم إذا أرادوا جهة نهضوا إليها مباشرة فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يدخلوه بغتة، لذلك يفسدون على الناس خطط الدفاع، كما أن نساءهم يقاتلن كالرجال، والغالب على سلاحهم النشَّاب، ولا يفرقون في القتل بين الرجال والنساء والأطفال، لأن قصدهم كان إفناء وإبادة العالم لا قصد الملك والمال .

ولما دخلت سنة 656هـ/1258م وصل التتار إلى بغداد وعددهم مئتا ألف، بعد أن ملكوا بلاد ما وراء النهر في سرعة رهيبة، فخرج إليهم عسكر الخليفة فانهزم العسكر، ودخلوا بغداد في عاشوراء، فأشار الوزير ابن العلقمي بخبثٍ على المستعصم بأن يصالحهم ويخرج إليهم، وأظهر أنه خارج إليهم حتى يتوثق بنفسه ثم رجع إلى الخليفة وأوهمه أنهم يقبلون الصلح مقابل السلطنة على البلاد، فخرج الخليفة ومعه جماعة من الأعيان، ثم عاد ابن العلقمي واستدعى من بقي في بغداد من العلماء والأمراء والحجاب والكبار فضربت أعناقهم جميعاً، ثم مد الجسر ودخل التتار بغداد فاستمر القتل فيها أربعين يوما ولم يسلم إلا من اختفى وقتل الخليفة رفساً وقال الذهبي: ( وما أظنه دفن)، وأما الخائن ابن العلقمي فلم ينل من التتار إلا الذل والهوان ولم تطل أيامه بعد ذلك .

ثم دخلت سنوات 657-658هـ/1259-1260م والدنيا بلا خليفة للمسلمين، والتتار يواصلون زحفهم غربا حتى قهروا حلب ودمشق فخرج إليهم سيف الدين قطز وركن الدين بيبرس فالتقوا هم والتتار عند عين جالوت، فهزم التتار شر هزيمة.